النقد في أدبنا المعاصر

للاستاذ عادل سلامة

هل من العجب أننا نفرق اليوم فى الحديث عن أدبنا وماله من امتياز يجب أن نفخر به ونعتز كل الاعتزاز ، ونحن قد ملأنا بضجيجنا السماء والهواء والماء ، ولم نكتف بذلك ، بل غصنا إلى عمق البحر ، وأتينا من قاعه بالعجب العجاب .

فمنذ بدء هذا القرن ، وقد انتشر عنا فى أرجاء الأرض ، أنه قد كان لنا أدب ميت فأحييناه ، ولم يكن لنا - كما زعمنا - بد من ذلك ؛ فنحن قوم قد أرهف شعورهم ، وصقلت أذواقهم ، وامتد لهم فى محيط الفن صوت عريض مجلجل !

فإذا كنا كذلك ، فلا بد لنا إذن ، حين وقفنا على الآداب

لأن ضميره كان قد هب من سبات طال أمده » فيفزع إلى الغدير ناظراً فى صفحة تحت ضوء الكواكب فيتجلى له وجهه أمامه تكسوه اللحية المهندمة ، فيلمس أطرافها بأنامله ، ثم لا يلبث أن تعاجله ثورة عارمة ، فكأنه يريد أن يقتلع تلك اللحية من جذورها لا يبقى ولا يذر » ثم يحس الرجل العار فى ما اقترف من جريمة وضيعة ، فتستحيل حاله وينطوى على نفسه » وقد اتخذ لنفسه حياة طابعها عزلة الناس ، فهو يتجنب مرآهم ما وسعه أن يتجنب ، حتى ليحاول وهو يسلك طريقه أن يتنكب مواجهة أقرب ذويه ، وقد علت سحنته سلابة وجهامة ، حلت محل ما كان قبلا من وداعة وتطلق . فأما عيناه فكانتا ترميان بنظرات تتلظى فيها الشهوة والشر ، بعد أن كانت هاتان العينان تترسل منها نظرات الطهر والصفاء . إلى أى طريق فى حياته هو مسوق ؟ ترى أية نهاية ترتقبه لتختم حياته تلك ؟ »

وهذه صورة من الصور الحية النابضة التى تتألق فى أصناف القصص ... صورة رجل وقع تحت صفعات الضمير الحى فما استطاع أن يفر ، ولا أستطاع أن ينسى

أما قصة « مجنون » فتتحدث فى صراحة وإخلاص إلى الشاب الذى يبهره ألق المرأة ويريقها ، فلا يجد حرجاً فى أن يتزوج من فتاة خالطها وأغرم بها وبادلته هى هوى بهوى وغراماً بغرام ، فقضى إلى جانبها ساعات ذاق فيها لقمة الهوى المحض وسعادة الحب الخالص ، لا ريب فى أن تاريخها سيتيقظ فى دم الشاب بعد حين فيبذر فيه غراس الشك والريبة . فيؤذيه ويؤلمه

هذا طبيب تزوج من زوجة أحد مرضاه بعد أن مات زوج منها بعد أن تغفلا الزوج حيناً من الدهر فاختلسا مما منه وقت الهناءة والسرور ... ثم فارت تزوات عقله فتكنفه الشك واخترمته الريبة وتغلغلت فيه الحيرة ، فأخذ يتحدث عن خطرات قلبه يقول : وشرعت أتجسس عليها . على الزوجة : وما كان فى طوق ألا أفعل ، فقد دفعتنى إلى ذلك دوافع نفسية ليس عنها محيص ... وربما عاجلتنى نوبة هياج ، واندفعت فى أرجاء العيادة أتصفح الناس وأتفحص الأشياء ، وما أزال أدقق فى البحث والتفتيش تحت المكاتب ووراء الأبواب ، مدعياً أنى فقدت شيئاً وأنى أنشده ، وتتراءى له أخيلة مزعجة فيقول « ويلى ! إن زوجتى مصرة على أن تعيد الرواية كاملة الفصول »

وهكذا تتصفح هذه المجموعة كلها فترى صفحات خفاقة بالحياة نابضة بالمشاعر .

ولست أوافق المؤلف على أن ينشر على عينى القارىء مقدمات فلسفية طويلة يوطىء بها لحوادث القصة مما ينفر الذهن . وإن ذلك لنراه واضحاً فى قصص « مجنونة » و (فى غفرة الأقدار) و (هذه الحصاة) وأشهد أن مثل هذه الآراء قد انبثت فى خلال القصص الأخرى فلم تكد العقل ولم تنفر الذهن

وبعد فإن مكانة الأستاذ محمود تيمور فى القصة مكانة مرموقة وحسبه ما قاله الدكتور طه حسين بك عنه يوم أن قال « لم تكن تحب القصص لتأخذ فحسب ، وإنما كنت تحب القصص لتأخذ ثم تقلد ثم تلتمس شخصيتك . ثم تظفر بها ، ثم تنتج فتملأ الشرق والغرب أدباً وحكمة وفقها لشئون الحياة كأروع ما يكون الأدب والحكمة والفقه فى شئون الحياة .

كامل محمود حبيب

الغربية ، وما تحمله إلى النفس من نفح طيب ، وشذى معطر ، أن ننظر في أنفسنا ، وأن نقدر ما وصل إليه أدبنا العربي ، من خلود هو أشبه بالماء الآسن منه بأي شيء آخر .

وقد نظر الناس منا إلى هذا الخمود ، فأعلنوا الثورة ، وتمخضت ثورتهم هذه اللهجة المتأججة ، عن جدول رفيع سارب ، ينساب من محيط الأدب الغربي ، وأخذ يتدفق في بطء بطيء نحو هذه الصحراء ، الممتدة كل الامتداد ؛ أخذ يرويها من أطرافها وأنبت فيها شيئا يشبه النبات الأخضر ، ولم يكن لهذا النبات أن ينمو ويورق ويترعرع ، فهذه الشمس المحرقة ، شمس أنصار القديم — كما اصطلحوا على تسمية هـــذه الفئة ، ترسل أشعتها سادية ظامئة ، فتذويه وتمتص ماء حياته ...

ثم تقدمت الأيام رويدا رويدا ، تمشي على الوني كما يقول الشاعر القديم ، واشتدت ساق هذا النبات التضائل الضعيف ، وكان لا بد له من أن يقاوم ، وأن يصطرع من هذه الطبيعة المجدبة ، التي يؤثر جدبها الموحش على الزهر اليانع النضر !

والذي حدث فعلا ، أن بدأت مشكلة الأدب القديم ، والأدب الجديد ، بدأت هذه المشكلة منذ زمن ، وهي ظاهرة إلى اليوم وستظل ظاهرة إلى أبد الآبدين . فنحن لا نتحدث الآن عن أدبنا ذاته ، وإنما يهمنا من الأدب أن ينتمي إلى المدرسة القديمة ، التي تقدس الماضي ، أو ينتمي إلى المدرسة الحديثة التي تنظر بمنظار الحاضر المستقبل . والنقد علم مقوم لفن الأدب فإذا كان حظنا من الأدب يسيرا بادي اليسر ، فلا تنتظر — كما يرى العقل — نقدا ضخما بادي الضخامة . .

ولكننا نقوم نقل الأمور بألسنتنا الطويلة المشتقة في الطول ، وأيدينا القصيرة الممتنة في القصر ، وليس لنا عيون فننظر بها ، ولا قلوب فنعقل بها ، ولا آذان فنسمع بها ، وإنما أدواتنا التي قد منحناها فقيرة من ذلك أشد الفقر ، فإذا خرج علينا أحد من الأدباء — سواء أكان منهم أم ليس منهم — بأي أثر وإن لم يكن له من الأدب إلا الانتحال لاسم الأدب كما يقول الجاحظ ، تداولناه بالحديث ، وجلسنا حوله كما يجلس القوم الجياع حول مائدة مليئة بالقصاع ، وأخذنا نقلبه وندوره ونحوره ، وننظر له من هنا ومن هناك ، ثم بعد ذلك نصدر عليه حكمنا القاهر بأنه من أتباع المدرسة القديمة فينبغي أن نؤثر أوهية الزبل بهذا الأثر ، ولو اشتدت ضخامته ، واستدت جسامته . أو أن نحكم عليه بأنه من المدرسة الحديثة التي قد تشبع أذواقنا المترفة ، وتبعث في نفوسنا شيئا من الانتعاش الفني الذي نستمتع به كل المتعة ، فمن الخير إذن أن يبقى ، وأن يقرأه الناس ، وأن نعمل به كذا وكذا إلى ما لا ينتهي من حديثنا الفضفاض عن كل شيء ...

وليس غريبا أن أقول هذا ، فبالأمس القريب ، ظهر كتاب لقصصي مصري شاب بعنوان (بائع الحب) فثار عليه البعض ، وثار له البعض الآخر . والعجيب في الأمر أن المختلفين كانوا من أتباع المدرسة المجددة ، ولكن جوهر الخلاف يدور حول ؛ هل هذا الكتاب أو بالأحرى الكاتب نفسه — من المنتسبين للقدماء أو للمحدثين . فالأولون يرون أن الكاتب من أتباع مدرسة امرىء القيس والآخرون يقرنونه بشارل بودلير وغيره من الكتاب الواقعيين في الآداب الأجنبية .

فقد وضح إذن أن (النقاد) عندما يقيمون نقدهم على غير أساس من علم أو من دراسة للآداب الغربية التي نفتقر إليها أشد الافتقار ، وليعلم (النقاد) عندنا أن ليست مهمة النقد هي بيان مقدار انتماء الأثر الأدبي الى القديم أو إلى الحديث ؛ وإنما مهمة الناقد حقا أن يقدم الأثر الأدبي إلى قراء الأدب ، وأن يوضح لهم مزاياه وعيوبه من حيث هو عمل أدبي يحكم عليه ، وأن يبين قيمة هذا العمل في عالم الأدب . والنقد يتناول كل الآثار الأدبية ولا يرتفع بأي حال من الأحوال ، خلافا لما قال زميل أديب عندما تعرض لنقد هذا الكتاب على صفحات الرسالة — فرسالة النقد إنما تتصل اتصالا وثيقا بالقارىء لا بالكاتب ، فهو يهيىء نفس القارىء وعقله لقراءة الكتاب ، واليوم بعد مرور ثلاثة قرون على وفاة شكسبير ما زال النقاد الانجليز يتعرضون لآثاره الأدبية . وأستطيع أن أقول إن القارىء نفسه هو مدار الأدب وعماده ، وإلا فلم الكتاب وافتن الأدباء ، إن لم يكن كتب لإثارة المتعة الأدبية واللذة الفنية في نفس القارىء .

والناقد الانجليزي (ماثيو أرنولد) يعترف في كتابه (الثقافة والفوضى) أن غرض الناقد يهدف إلى خلق مجتمع اسمى ، وإنما يكون ذلك بتوجيه الملكات الفنية الممتازة ، وتصفيتها مما يشوبها من نقائص ، وقد يبالغ أرنولد أحيانا ، فيصل بالنقد إلى أنه قياد الأدباء في مختلف الأزمنة ؛

فإذا ارتفع النقاد بأفكارهم فى عصر من العصور نضجت عوامل الفن فى نفوس الكتاب والشعراء فى ذلك العصر ، وكان من ذلك نهضة فنية ممتازة .

فليس النقد إذن عند الغربيين ، حلقة يصطرع فيها الناس ، إما بالأنواء العريضة ، والألسنة الطويلة ، أو بالأقلام الدبية التى تكاد تمزق الورق. وإنما النقد عندهم آلة مهمة من آلات الأدب ، لها غرض برىء من النزعات الشخصية ، والمآرب الموقوتة .

وأهم ما يوجه إليه الناقد الغربى نظره هو العمل الأدبى الذى بين يديه ، يبين مقدار أصالته فى الفن ، ويكشف للناس عن نواحى الحسن والقبح فيه . ولقد مر على الناقد مثلا شخصية أبدع الكاتب فى تصويرها ، فما أسرع ما تشتهر هذه الشخصية فى عالم الأدب ، حتى لقد تخفى اسم الكاتب نفسه فى بعض الأحيان. ومن منا من لم يسمع عن مكبث وهملت وأوليفر تويست ومدام بوفارى وهاربا جون ؟

والناقد الغربى لا تعنيه حياة الفنان إلا بقدر ما تنعكس على عمله الفنى ، فهو يبحث عن أثر ثقافته ، وما مر به فى حياته من حوادث . ولقد تعرض النقاد لتوماس هاردى فى حياته ، واستعانوا به نفسه على تبين النواحى الثقافية فى آثاره ، والأماكن التى وصفها فى كتبه ، وليس أدل على هذا من مقدمة دونالد مكسويل — وهو فنان تعرض لوصف الأماكن التى رسمها هاردى فى عشرة من مؤلفاته — فى كتابه أقول تعرض النقاد له ولغيره من الأدباء والشعراء ومع ذلك لم يتعرض له أحد منهم بسبب شخصى أو مثل ذلك . أما إذا عدنا إلى أدبنا العربى الحديث ، فاعلم اننى قرأت مرتين (لناقدين) من نقادنا بدأوا نقدهم بأنهم لم يشتروا الكتب التى سيعرضون لها شراء ، وإنما أحدهم وقع الكتاب بين يديه — ولست أدرى كيف وقع — والآخر أهداه اليه المؤلف من باب التملق لأنه ناقد معروف مشهور !

وأهم عماد يقوم عليه نقدنا الحديث هو السباب والطعن الصريح فى شخصية الكاتب وخصوصياته ، وتلومه على الكتابة فيما ليس له به شأن ، فكأننا أقوام بداة جفاة قد أقفرت نفوسهم من الفن والشعر والأدب ، فلم تنبت أصولها إلا عند هؤلاء النقاد ، وهم مع ذلك يكابرون ، ويدعون أن لنا أدبا يجب أن يقرأ ، ويتلومونا نحن الشباب على انصرافنا عنه انصرافا تاما . ونحن الشباب فى حيرة دائما من أمرنا ؛ ننظر إلى أمام فلا نجد إلا الصحراء ، ومن خلفنا فلا نجد إلا الصحراء ، وعن يميننا وشمالنا فلا نجد إلا الصحراء ، ويا ليتها صحراء مجدبة مقفرة ، وإنما هى صحراء تحتلها الأسود الضوارى المصطرعة ، وقد امتلأت بالدماء من كل جانب ..

فهذه هى حالة أدبنا ونقدنا ، فما فائدة النفخ فى قربة مقطوعة كما يقول المثل العامى؟ فلنلجأ إذن إلى الأدب الغربى نفسه ، لا الذى يصوت لنا النقاد ، ولنتذوقه ونستمتع به ، لعل يوماً أن نجىء فنستطيع أن ننهض بأدبنا هذا الفقير كل الفقر ، وأما أن نبقى هكذا بين أيدى (النقاد) وألسنة الأدباء كالمضرب والكرة ، فهذا شىء لا نرضاه لأنفسنا نحن القراء من شباب ، وقد قال شاعرنا القديم

لعمرك ما فى الأرض ضيق على امرىء ... سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل

عادل سلام

كلية الآداب بجامعة فؤاد

فى ليلة عيد

للأستاذ أحمد حسن الرحيم

قرأت فى العدد (٨٧٦) من الرسالة الغراء قصيدة رائعة للاستاذ الأديب محمد سليم الرشدان ، وقد أطلعت عليها متأخراً ، وهى بعنوان : (فى ليلة عيد) ولا أتفق مع الأستاذ الشاعر فى قسم مما جاء فى قصيدته . والنقد النزيه لا يرتضى الذوق كتمانه ، فهو آية التعاون الفكرى وسبيل التقدم والقصيدة عدتها خمسون بيتاً كل خمسة أبيات على قافية واحدة .

قال فيها :

فأصباحه مشرقات الصفاء ... وأمساؤه ضاحكات السمر

والذى أدريه أن المساء وقت غروب الشمس والسمر حديث الليل ، فكيف جمع الأستاذ بين شيئين متباعدى الزمن . فالسمر لا يكون مساء .

وقال :

تسير الهنـــاءة فى ركبه فينهل منهـا بشق الصور

أما أن الهناءة تسير مع الركب لينهل منهـا الشخص المعنى بالقصيدة فهذا مما يتسع له الشعر ، ولـكن قوله: (فينهل منها بشق الصور) وردت فيه (الباء) زائدة فى قوله : « بشق » والصواب أن يقول فينهل منها شق الصور ؛ لأن نهل لا تحتاج (الباء) وأعيذ الأستاذ أن يقول (فينهل منها بشق الصور) كما تقول فيشرب منها بالأناء لما فى هذا المعنى من تفاهة .

وقال .

فنى أم طفلتـــه ما أفاء عليه الحبور وبرد الحياه

وبرد الحياة من إضافة الصفة إلى الموصوف أى حياة باردة . والأستاذ — كما أفهم من معانى القصيدة ... يقصد بها حياة الرغد وليست (الحياة الباردة) حياة الرغد بل هى حياة الضجر والسأم

وقال الأستاذ :

وكـر الزمان وئيد الخطى وطفلته شغله الشاغين

وقد مرت عشرة أبيات من القصيدة ، كلها فى الفرح والحبور فلا نزال فى القسم المصور لحياة الرغد؛ إذن فـكيف يمر الزمان (وئيد الخطى) وهو لا يمر وئيداً إلا فى الاحزان والفجائع؟ وأرى أن الصواب . فر الزمان سريع الخطى كعادته فى الأفراح إذ يسهو الإنسان عن مروره

ووصف الأستاذ فتاة الرجل المعنى بالقصيدة بأن والدها أفاض عليها من ضروب النعيم وغمرها بالعطف وتجاوزت (صباها الغرير) فهى تميس فى عجب .

وتقبل فى خطوات الشباب كظبى تأثره الحـابل

والحابل هو ناصب الحبالة أى الشرك وتأثره أى تتبع أثره ، ولم أجد علاقة بين المشبه والمشبه به ؛ فالفتاة أقبلت فى شبـابها كأنها (ظبى) تتبع أثره الصياد الذى ينصب الشرك ، والأثر لا يتبع إلا بعد غياب صاحبه . فلو اكتفى بما معناه : وكأنهـا ظبية) لـكان المعنى واضحاً ، أما هذه الأضافة : (تأثره الحابل) فهى بؤرة الغموض واللبس ، ولا أدرى إن كانت الظباء مما يصاد بالشرك .

وقال الأستاذ :

ومرت خطوب تشيب الوليد بمـا حل من هولهـا الفزع
فيوم حصـاد كيوم الوعيـد أقضوا به سـاكن الهجـع
ويومـاً يســاق أباة الرجال إلى محشر دافق مســترع

والذى أراه أن كلمة (يوما) فى أول البيت الثـالث تقتضى قواعد النحو رفعها ، فهى ليست منصوبة على الظرفية فى هـذا الموضع .

وقال الأستاذ :

فشيخ يعض على راحتيه ويندب فى القوم صرعى بنيه

والشيخ هذا فلسطينى منكوب بتجبر الثنام ؛ ولـكن القريض لم يؤد من المعانى ما يرتضيه النقد ، فالراحة هى باطن الـكف وليس من المألوف أن يعض الإنسـان على راحتيه فى الأحزان . والمألوف أن يعض الإنسان سبابته من الندم أو الغم (وسبابة المتندم) شهيرة قال فيها الشاعر :

غيرى جنى وأنا المعذب فيكم فكأننى سبـابة المتندم

ولـكن الاستاذ الشاعر فى تقديمه القصيدة يقول انهـا واقعية فلنصدق

أما قوله (ويندب فى القوم صرعى بنيه) فلا تدرى أهو يندب بنيه الصرعى أم يندب من صرعهم بنوه من الأعداء . إن القرينة المعنوية تمنع المعنى الأخير أى يندب الشيخ الصرعى من أعدائه ولـكن عبارة الشاعر تتسع لـكلا المعنيين .

وقال عن الفتاة :

ولم تك تعـلم أن الزمـان يداهم بالحـادث المطبق

وقوله : (يداهم) خطأ صوابه يدهم فلم أجد فيما راجعت من المعاجم الفعل (داهم) وليس هذا مما يتسع له باب القياس .

وقال :

وأن البلاد انتهت للعدو بكيد أمرىء قط لم يتق

وانتهى اليه الشىء أى وصل اليه فاستعمل اللام عوض إلى وهو عوض لفظى مقبول فى الشعر ولـكن المعنى غير مقبول ، فلا يقال . البلاد وصلت إلى العدو ، لأن البلاد ليس مما ينقل. أما قوله